١٧٢٢٥

أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

٨٦٦٩

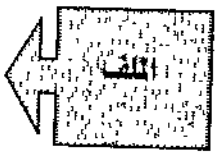

الملف

# الحج وتحقيق هدف الأنبياء(ع)

من الملاحظ لكلّ متأمّل في النصوص الإسلامية أنّها تربط تماماً بين الحجّ ومسيرة الأنبياء: وأهدافهم بشتّى أنواع الربط.

فنحن نجد هذه النصوص تصرّح ـ مثلاً ـ بأنّ الحجّ منسكٌ قام به الأنبياء: فشكّل سُنّةً لهم.

وجاء في الرواية عن الإمام الرضا(ع): «فإنْ قال: فلمَ جعل وقتها عشر ذي الحجّة ولم يقدّم ولم يؤخّر؟ قيل: لأنّ الله تعالى أحبّ أنْ يُعبد بهذه العبادة في أيّام التشريق، وكان أوّل ما حجّت لله الملائكة وطافت به في هذا الوقت، فجعله سُنّةً ووقتاً إلى يوم القيامة. فأمّا النبيّون: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلّى الله عليه وعليهم أجمعين، وغيرهم من الأنبياء(ع) إنّما حجّوا في هذا الوقت فجُعلت سُنّةً في أولادهم إلى يوم القيامة...» الحديث[1].

وروى العيّاشي في تفسيره، عن الحلبي قال: سُئل أبو عبد الله(ع) عن البيت أكان يُحجّ قبل أنْ يُبعث النبي(ص)؟ قال: «نعم، وتصديقه في القرآن قول شُعيب(ع) حين قال لموسى(ع) حيث تزوج: (على أنْ تأجرني ثماني حجج)[2] ولم يقل: ثماني سنين. وأنّ آدم ونوحاً(ع) حجّا، وسليمان بن داود (ع) قد حجّ البيت بالجنّ والإنس والطير

والريح، وحجّ موسى(ع) على جمل أحمر، يقول: لبّيك لبّيك، وأنّه كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[٤]، وقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٥]، وأنّ الله أنزل الحجر لآدم(ع)وكان البيت»[٦].

وعن الباقر(ع) أنّه قال: «إنّ الله وضع تحت العرش أربعة أساطين وسمّاه الضراح، ثمّ بعث ملائكةً فأمرهم ببناء بيت في الأرض بحياله [بمثاله] وقدّره، فلمّا كان الطوفان رُفع فكانت الأنبياء(ع) يحجُّونه ولا يعلمون مكانه حتى بوّأه الله لإبراهيم(ع)فأعلمه مكانه...»[٧]

وجاء في الخطبة (القاصعة) للإمام أمير المؤمنين(ع) قوله:

«وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألاترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم ـ صلوات الله عليه ـ إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً...»[٨] الخطبة.

وجاء عن الإمام الصادق(ع) قوله: «...وهذا بيتٌ استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محلّ الأنبياء(ع)وقبلةً للمصلّين له...» الحديث[٩].

كما أنّ بعض النصوص تركّز على أنّ تسمية أماكنه مستقاة من حوادث جرت لبعض الأنبياء(ع).

فقد روى البرقي عن أبي عبد الله(ع) قال: «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً (عليهما السلام)، وهبطت حواء(عليها السلام) على المروة. وإنّما سُمّيت المروة لأنّ المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة...» الحديث[١٠].

وروى البرقي أيضاً عن معاوية قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن عرفات لم سمّي عرفات؟ فقال: «إنّ جبرئيل(ع)خرج بإبراهيم(ع) خصوصية يوم عرفة، فلمّا زالت



الشمس قال له جبرئيل(ع): يا إبراهيم، اعترف بذنبك واعرف مناسكك، وقد عرّفه ذلك فسميت عرفات لقول جبرئيل(ع): اعترف واعرف»[١١].

ويعتبر أمير المؤمنين(ع) مواقف الحجّ مواقف للأنبياء(ع)، ويركّز في إحساس الحجّاج أنْ يشعروا بأنّهم يقفون مواقفهم فيقول:

«...واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه...» الخطبة[١٢].

والأدعية التي يدعو بها الحاجّ تذكّره بالأنبياء(ع)وهدفهم، وتدعوه للتسليم على جميع الأنبياء(ع) مع التركيز بسلام خاصٍّ على إبراهيم(ع).

وهناك نصوصٌ كثيرة تتحدّث عن حجّ هذا النبي أو ذاك، وقد رأينا بعض النصوص تربط البيت بآدم(ع).

منها: ما رواه الصدوق عن أبي عبد الله(ع) قال: «إنّ آدم(ع) هو الذي بنى البيت ووضع أساسه، وأوّل من كساه الشَّعر وأوّل من حجّ إليه، ثمّ كساه تُبّع ـ بعد آدم(ع)ـ الأنطاع...» الحديث[١٣].

كما أنّ هناك نصوصاً كثيرة تتحدّث عن حجّ موسى(ع)، منها:

ما رواه ابن عباس قال: مرّ رسول الله(ص) بوادي الأزرق فقال: «أيُّ واد هذا؟» فقالوا: وادي الأزرق، قال: «كأني أنظر إلى موسى(ع) هابطاً من الثنية له جؤار إلى الله بالتلبية»، ثمّ أتى على ثنية هرشى قال: «أيُّ ثنية هذه؟» قالوا، ثنية هرشى، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متّى(ع)، على ناقة حمراء جعدة، عليه جبّة صوف، خطام ناقته خلبة، وهو يلبّي»[١٤].

وعن ابن عباس أيضاً: أنّه(ص) قال: «أمّا موسى(ع) كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبّي »[١٥].

إلاّ أنّ التركيز الرئيس يتمّ على ربط عمليّة الحجّ بشيخ الموحّدين إبراهيم(ع)، حيث أكّد القرآن الكريم ذلك بشتّى أنواع التعبير.

فهو ـ مثلاً ـ بتحدّث عن امتحان إبراهيم(ع) بالكلمات الإلهيّة ويُتبعُ ذلك بعمليّة

الربط، يقول تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١٦].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[١٧].

وإذا لاحظنا سورة الحجّ وجدناها تؤكّد في مواضع عديدة صراع الخطّين: خطّ الحقّ وخطّ الباطل، كما تؤكّد نصرة الله لخطّ الحقّ بعد أنْ تأذّن للمؤمنين في قتال الكافرين، وبعد كلّ هذا تردّ على الكافرين الذين يلحدون بظلم في بيت الله وتربط هذا البيت بإبراهيم(ع)، فتقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١٨].

وفي ختام السورة يدعو الخطّ المؤمن للجهاد ـ حقّ الجهاد ـ وينفي الحرج عنه، ويعتبر ذلك ملّة أبيهم إبراهيم(ع)، مذكّراً المسلمين بدورهم الحضاري كشاهد على الناس وبدور الرسول(ص) كشاهد عليهم. وهكذا يتمّ أروع ربط بين خطّ الأنبياء(ع) وبالخصوص خطّ إبراهيم(ع) ـ وهذه الأمّة المسلمة، فيقول تعالى في آخر سورة الحجّ: (وجاهدوا في الله حقّ جهاده هُو اجتباكُم وما جَعَلَ عليكم في الدّين منْ حَرَج ملّةَ أبيكُم إبراهيم هو سمّاكُم المسلمين منْ قَبل وفي هذا ليَكون الرسولُ شهيداً عليكُم وتكُونوا شُهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هُو مَولاكُم فَنعْمَ المولى ونَعْمَ النصير)[١٩].

ولـمّا كان الرسول الأعظم(ص) خاتم الأنبياء وأفضلهم فهو يمثّل خطّهم خير تمثيل،



ولمّا كان الحجّ يعني ـ فيما يعني ـ: التذكير بالرسول العظيم(ص)وآثاره وانطلاقة دعوته العالمية الإنسانيّة الكبرى، فإنّ الحجّ يمثّل أروع عمليّة تذكير بسيرته صلّى الله عليه وآله.

وقد جاء عن هشام بن الحكم، عن الصادق(ع) ـ وهو يذكر حكَم الحجّ ـ قوله: «...ولتُعرف آثار رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وتُعرف أخباره ويُذكر ولا يُنسى...»[٢٠].

إنّنا من خلال هذا الاستعراض ننتهي إلى الحقيقة المهمّة القائلة: بأنّ الحجّ هو سُنّة الأنبياء(ع)، والمحقّق لهدفهم بكلّ وضوح، وهو سُنّة إبراهيم(ع)المؤدّية لتركيز أهدافه الحضارية.

ولكن ما هي أهداف الأنبياء(ع)؟، وكيف يحقّقها الحجّ؟

إنّ القرآن الكريم أولاً يربط هدف الأنبياء(ع) بهدف الخلقة الإنسانيّة عموماً وهو الوصول إلى أقصى درجات التكامل عبر الرقيّ في مدارج العبوديّة الكاملة لله تعالى.﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢١].

فكلّما تعمّقت معاني العبوديّة في الوجود الإنساني تكامل وقَرُبَ من الكمال المطلق.

وكلّ دعوات الأنبياء(ع) تتلخّص في التعبيد لله تعالى، ولزوم صياغة الحياة كلّها وفق أوامره جلّ وعلا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٢٢] يردّدها كلّ الأنبياء(ع) دون استثناء. والدعوة للتوحيد هي روح كلّ كلماتهم عليهم الصلاة والسلام.

يقول تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[٢٣].

وروي عن رسول الله(ص) قوله:

«أفضل الأيام يوم عرفة، إذا وافق يوم الجمعة فهو أفضل من سبعين حجّة من غير يوم الجمعة، وأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له»[٢٤].

وكلمة التوحيد هذه إثباتٌ للحاكميّة الإلهيّة في الحياة ونفيٌ لكلّ معاني الطاغوت

والتجبّر، ومن هنا أعلن القرآن الكريم: أنّ كلّ الأنبياء(ع) طالبوا أممهم بأمرين: (عبادة الله، واجتناب الطاغوت)، فقال جلّ وعلا: (ولقد بعثنا في كلّ أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٢٥].

وهكذا كانت حياتهم عليهم السلام عملاً على تحكيم شريعة الله في الأمم ومحاربة لكلّ مظاهر الأصنام والطاغوت.

إلاّ أنّ التجلّي الرائع لهذا الهدف يبدو في حياة سيدنا إبراهيم(ع)، وربّما كان الربط الشديد للحجّ به ناتجاً من هذا التجلّي العظيم لمسألة تعبيد الأرض لله ومحاربة الأصنام والطاغوت بشتّى مظاهره.

وقد تكرّر ذكر إبراهيم(ع) في القرآن تسعاً وستّين مرّة، وفي ستّ وعشرين سورة، مع التركيز على الخصيصتين الرئيستين له وهما: توحيده، وصراعه ضدّ الطاغوت.

أمّا توحيده، فيسحّر الحياة كلّها بكلّ نواحيها لله جلّ وعلا إذ يقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢٦].

وإذ يعلن: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٧].

واذ يعلن هو وابنه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[٢٨].

وهكذا كان شعاره الرائع: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٩].

وفي مجال صراعه مع الكفر والكافرين يقف إبراهيم(ع)بطلاً توحيدياً لا يخشى في الله لومة لائم، ويصرخ بوجه نمرود، ويجادل عَبَدَة الكواكب، ويقارع الأصنام، حاملاً فأسه التاريخيّة، ساخراً من تلك الأصنام قائلاً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ،مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٣٠].

ويعلن العداء للمشركين والبراءة منهم:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[٣١]. ويتبرّأ حتّى من أبيه عندما يتبيّن شركه، ويعلنها حرباً ضدّ الشرك قائلاً:



﴿إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٣٢].

وهكذا يشكّل إبراهيم(ع) الأسوة الحسنة لكلّ المؤمنين عبر التاريخ. فإيمانه يصل إلى حدّ اليقين، وتأمّله يستوعب الكون، ودعوته تتلخّص في التوحيد، وأساليبه في الدعوة متنوّعة، واهتمامه بتعبيد البشريّة لله يتجاوز عصره إلى كلّ العصور، وصراعه الفكري والعملي يشمل كلّ الأصنام، وهو في ذلك لا يخشى أحدا إلاّ الله تعالى.

وتضحياته في سبيل هدفه متوالية، وبالتالي فهو يمتلك كلّ الصفات الإنسانيّة العُليا.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا، وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣٣].

هكذا إذن ترتبط عمليّة الحجّ بأهداف الأنبياء(ع)وغاذجهم القياديّة خير ارتباط. وإذا شئنا أن نسير من هذه الأهداف الإجماليّة إلى الخطوط التفصيليّة استطعنا أن نشير إلى كلّ الخطوط التي تشكّل بمجموعها: (الإسلام) بجوانبه. فهي إذن تعني:

(ألف) تركيز العقيدة الإلهيّة بكلّ مقتضياتها في نفوس أبناء البشر، وتعميق المفاهيم التي تحدّد مواقف الإنسان من الكون والحياة كلّها، وإرجاع البشريّة إلى فطرتها السليمة وتنمية هذه الفطرة.

(ب) بناء أبناء الإنسانيّة بناءً عاطفياً منسجماً مع العقيدة الإلهيّة الحقّة، ونداءات الفطرة الصافية.

(ج) إيصال التعاليم الإلهيّة البنّاءة إلى كلّ البشريّة وإقامة الحجّة عليها.

(د) قيادة تجربة تطبيق الشريعة الإلهيّة، وصياغة المجتمع العابد لله والسائر نحو كماله بشكل منسجم، وإقامة القسط والعدل وإثارة دفائن العقول.

(هـ) مقارعة كلّ مظاهر الطاغوت والاستكبار، ونفي كلّ صورها الماديّة وكلّ قيودها الوهميّة، وكلّ مطلقاتها الذهنيّة الكاذبة.

ولسنا بصدد استعراض الآيات القرآنية الكريمة التي تتعرّض بشكل متفرّق لهذه

الأهداف بالتفصيل، ولكن نلاحظ: الآيتين التاليتين كمثال لتلك الأهداف التفصيلية، إذ يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٣٤].

وإذا عدنا إلى مناسك الحجّ نفسها وجدناها منسجمةً تمام الانسجام مع ذلك الهدف الكبير: (عبادة الله واجتناب الطاغوت). إنّنا نجدها عمليّةً صُمّمت بشكل تنسجم فيها: (الأفعال والأقوال، والمحرّمات، والأسماء، والشرائط، والذكريات، والأمكنة والأزمنة، ومراسم العيد، وبالتالي جوّ القداسة والأمان المضمون من قبَل المجتمع الإسلامي).

نعم، تنسجم فيها كلّ هذه العناصر مع الأهداف المذكورة، وهي أهداف الأنبياء (ع).

فلنلاحظ إذن: كيف تشترك العناصر والمناسك في تأدية هذا الدور المهمّ:

**أوّلاً. الأفعال:**

والرئيسة منها كما يلي:

(ألف) الإحرام:

بملاحظة: طبيعة العمل من نزع ثياب الدنيا ولبس الجميع ثوبين طاهرين تصبّ في مشاعر المسلم الحاجّ معان كثيرة:

منها: الإخلاص لله تعالى ورفض كلّ المُطلقات الوهميّة، ونزع كلّ هوى، والتلبّس بالحسنات.

ومنها: العودة إلى الفطرة ونفي العناصر الظاهريّة المميّزة بين أبناء الإنسانيّة الواحدة كاللباس. ويتأكّد هذا المعنى بملاحظة: شرط عدم كون ثوبي الإحرام مخيطين، وعدم



لبس المرأة لزينتها.

ومنها: تذكّر يوم القيامة.

(ب) الطواف:

ويوحي بعالم من المشاعر:

فمنها: التسامي الإنساني، حيث يجد الإنسان نفسه وهو يطوف حول البيت يتشبّه بملائكة الله المطيفين بعرشه، كما يعبّر أمير المؤمنين(ع)[٣٥]. ولمّا كان العرش هو محور حركة الكون فإنّ الكعبة هي محور حركة الأرض إلى الله تعالى ... وهذا الشعور يؤدّي إلى شعور آخر ملزم بالعمل على أنْ تكون الكعبة محور الحركة بالفعل ولا يتمُّ ذلك إلاّ إذا انضمّت كلُّ الأرض إلى الإسلام الأصيل، وانتفى وجود طواغيت الشرّ، وآمنت الأرض بربّها ودينها.

ومن تلك المشاعر ـ وتبعاً للشعور السابق ـ يولد عنصر التعلّق بعالم الغيب الذي يجسّده هذا اللقاء المقدّس، وهذا الحجر المقدّس، فيتمّ الإشباع المتوازن للحسّ والمعنى في الإنسان، وبذلك يتحقّق أحد مقوّمات الشخصية المسلمة. قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾[٣٦].

ومنها: تركيز وحدة الهدف والمسير، فإنّ الطواف يرمز إلى التحرّك حول محور معيّن، والمحور هنا واحد وهوالكعبة، بينما تتعدّد محاور الكفر (الجمرات الثلاث).

ومنها: العمل الجادُّ لحفظ المحور الإسلامي الرئيس، وبالتالي كلّ عَلَم يُرفَع للإسلام، ويتأكّد هذا بملاحظة: الروايات التي تجعل الكعبة (منارَ الإسلام) وحينئذ تنتفي كلّ معاني الخمول والخنوع للظّالمين، والاستسلام للقوى العظمى، وتحلّ محلّها معاني الثورة والتحرّك التغييري الواسع للمسلمين.

(ج) الصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم(ع):

وهذا العمل في الواقع يوحي بالإنضمام إلى العائلة الإبراهيميّة والمسيرة الإبراهيميّة عبر التاريخ. وعلى صعيد الصلة بالله فهو يحمل كلّ إيحاءات الصلاة الضخمة، بالإضافة إلى إيحاءات المكان، كما سيأتي الحديث عنها بعد هذا.

(د) السعي بين جبلي الصفا والمروة:

وفي السعي أيضاً أجمل الايحاءات للشعور الإنساني، وربّما كان أهمّها بيان عناصر التحرّك الإنساني الصحيح في نظر الإسلام وهي:

١ ـ الحركيّة المستمرة.

٢ ـ بذل الجهد والكدّ والكدح وتحمّل الكَبَد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[٣٧].

٣ ـ التحرّك بنيّة القربة إلى الله.

٤ ـ التحرّك ضمن حدود الله وعلى منهج الله.

٥ ـ متابعة مسيرة الصالحين، وتقليد الخطّ المؤمن، والتضحية في سبيل الهدف. وذلك يبدو إذا لاحظنا أنّ العمليّة ـ كما في بعض الروايات ـ هي انعكاس لعمليّة تضحويّة كبرى قامت بها أُمُّ إسماعيل(ع) وهي تبحث عن ماء يروي ظمأ ولدها العزيز، وذلك بعد أنْ رضيت الاستسلام لأمر الله بالبقاء في أرض غير ذات زرع ولا ماء.

وبتعبير آخر: فإنّ القيام بهذا المنسك هو إعلانٌ عن الانضمام إلى العائلة الإبراهيميّة الذي يتمُّ عند التقصير إشعاراً بكونه عضواً في عائلة التوحيد والتسليم الكبرى ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣٨].

وبهذا تصبُّ في مشاعر الإنسان الحاجّ كلُّ معاني المقاومة للطواغيت الأرضيّة من أمثال: ﴿الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[٣٩]، والإصرار على تحمّل الصعاب، وحتّى حرارة نيران العدوّ الجبّار في سبيل تحقيق الأهداف الكبرى وتحكيم شريعة الله في الأرض، وحينئذ يصبح المسلم أُمّةً كما كان إبراهيم (ع)أُمّة، وكما وصف الإمام الخميني(قدس سره)المرحومَ آية الله البهشتيّ بأنّه: كان أُمّة لوحده؛ ذلك لأنّه سلك طريق إبراهيم(ع).

ولابدّ هنا أنْ نشير إلى قول الإمام الصادق(ع) وهو يتحدّث عن إحدى حكَم السّعي فيقول:

«ما من بقعة أحبّ إلى الله من المسعى؛ لأنّه يُذلّ فيه كلّ جبّار»[٤٠].

نعم، تُذلّ الجبابرة، اذ تسعى حفاةً أو تشبه الحفاة، وليس عليها سوى ثوبين، وتُرمَّل



في بعض المسير، ممّا يكسر هيبتها وجلالها الزائفين.

(هـ) الوقوف بعرفة والمزدلفة:

ولايكاد الإنسان يحصي سموَّ المعاني التي تصبّ في شعور الإنسان المسلم هناك ... حيث يقف كلُّ ممثّلي الأرض على صعيد واحد، وبلباس واحد، يقولون قولاً واحداً، ويشهدون موقفاً واحداً، كلّ لحظة فيه مشروطة بقصد القربة.

وما يمكن أنْ نشير إليه من المعاني التي تصبّ في المسلم وعياً وعاطفةً وسلوكاً وهي: وحدة الأُمّة المسلمة، وعظمة الإسلام الذي جمع كلّ هذه الأقوام على صعيد واحد، وتذكّر القيامة وعرصاتها، وبعد كلّ ذلك: الشعور بالحياة الخالصة لله تعالى دون أنْ يشوبها طمعٌ أو غشٌّ أو كذبٌ أو ما إلى ذلك.

إنّ من يعي ذلك اليوم ينسى كلّ شيء في وجوده إلاّ الله، وإذا كان كذلك فإنّه يكون قد امتلك كلّ شيء، وتذكّر كلّ شيء حتّى نفسه، ولم يَعُد في زمرة مَنْ ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤١].

(و) رمي الجمار:

وهي العمليّة الضخمة المحتوى والعظيمة التأثير في المشاعر. إنّها عمليّة رمي مجموعة من رموز الشيطان المتعدّدة؛ إشارة لتعدُّد سُبُل الشيطان وألاعيبه ووجوهه.

كلّ صنوف الشيطان تُرمى بسبع، وكلّ مظاهره تُرمى، والعمليّة واحدة من قِبَل كلّ المسلمين. الشيطانُ يُرمى من قِبَل إبراهيم(ع) بحُصيّات فيرميه الركب المؤمن عبر التاريخ ويتبرّأ منه في أروع عمليّة رمزيّة تعبّر فيها الأُمّة المسلمة عن ذاتها بذلك.

فإذا كان الطواف يشكّل أهم أبعاد شخصيّتها فإنّ الرمي هو البعد الآخر. إنّه لا يعني: التبرّي من أعداء الله (الطواغيت) فحسب، بل يعني: العمل على نفْيهم من الأرض والقضاء عليهم ومهاجمتهم تماماً، كما يعني: الوقوف بوجه الشيطان على الصعيد الفردي، والقضاء على مكائده، وسدّ سبله، وقطع دابره ووساوسه.

ولَعَمْري إذا كان الرمي يعني هذه المشاعر، فماذا يقول أُولئك الذين تجرّأوا فعبّروا عن الحجّ كعمليّة عباديّة فرديّة، بعيدة عن الجوانب الاجتماعيّة والسياسيّة ؟!

(ز) الذبح والفداء:

وهذا بدوره يحمل أروع المعاني، كالتخلّق بعنصر التضحية في سبيل الله. ولا ريب في أنّ التضحية في سبيل الله نفسها تقوّي الإيمان بالله من جهة، وتزيد في الالتزام بالشريعة، وتفتح للتشريع الإسلامي آفاقَ التطبيق في الأرض.

كذلك يثير الذبح في الإنسان عنصر المواساة والإطعام وخصوصاً ﴿في يَوْمٍ ذي مَسْغَبَةٍ﴾[٤٢] فيسدّ بذلك جوعة الفقراء المحتاجين. وهذا المعنى إذا نقلناه إلى الصعيد الاجتماعي العام للمسلمين يعني: أنْ يتكافل المسلمون جميعاً على الصعيد الاقتصادي وباقي الصُّعُد، فإذا كان هناك جائعٌ فالكلُّ عنه مسؤولون.

ولكن هل تساءلنا كم عدد الجائعين في المناطق الفقيرة من العالم: كالهند، وباكستان، وسيلان، والفلبّين؟! وكيف بهنأ ذوو الثروة من المسلمين بحياتهم وأمامهم هذا الواقع الصارخ، وهذا المنسك الصارخ أيضاً ؟!.

(ح) الحلق والتقصير:

وهذا منسكٌ رائع المضمون أيضاً، يحمل معنى الإعلام بدخول الحاجّ في العائلة الإبراهيميّة المسلمة الموحّدة من جهة، ويتعايش مع التاريخ الإسلامي، والركب الفاتح لمكّة، الصانع لذلك المنعطف المهمّ للمسيرة.

وقد سُئل الإمام الصادق(ع): كيف صار الحلق على الضرورة[٤٣] واجباً دون من قد حجّ؟ فقال:

«... ليصير بذلك موسّماً بسمة الآمنين. ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَتَدخُلُنّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاء آمنينَ مُحلّقينَ رُؤُوسَكُم ومُقَصّرين لا تَخافُون﴾[٤٤]»[٤٥].

فالضرورة يحلق ليُعلن الانضمام، فإذا كرّر الحجّ قصّر ليؤكّدَ ذلك.

هذا، وهناك معان أُخرى كالتطهير يشعّ بها هذا العمل العبادي الجليل.

وهكذا رأينا: كيف تتلاحم أعمال الحجّ في تركيبة رائعة لتؤدّي الغرض الإنساني المطلوب. ولكن دعنا نلحظ تناغمها مع العناصر الأُخرى في تركيبة الحجّ ذات الهندسة الإلهيّة.



## ثانياً. المحرّمات:

ويقصد بها: محرّمات الإحرام من جهة، وبعض المحرّمات التي لا يجوز ارتكابها في الحرم. والمهمّ التركيز على المحرّمات الأُولى لنلاحظ أنها تترك مشاعر كبرى في وجود المسلم من خلال التزامه إياها:

منها: الشعور بلزوم مراقبة النفس

ذلك أنّ المسلم اذ يُحْرم يدخل دخولاً خاصّاً في حمى الله ومراقبته الشديدة، وحينئذ فعليه الانتباه الشديد والمراقبة الدقيقة، والامتناع المتواصل ـ بقصد القربة ـ عن محرّمات كان عليه سابقاً أنْ يمتنع عنها ولو لم يقصد القربة، ومحرّمات أُخرى كانت عليه حلالاً في حياته العادّية فاعتادها، ولكنّه الآن في مقام آخر، فعليه الالتزام الدقيق، فيجب عليه أنْ لا يقتل هوامّ البدن فهي هنا في أمان، وأنْ لا يشمّ الطيب، وأنْ لا ينظر في المرآة، وأنْ لا يتدهّن، وأنْ لا يلمس المرأة التي كانت عليه حلالاً قبل الإحرام، وأنْ لا يقلع شعرةً من بدنه، وهكذا باقي المحرّمات الأُخرى.

وإنّ من يتأمّل عمليّة الإحرام تأمّلاً عميقاً يدرك أنّ الإحرام تربيةٌ للمرء على مراقبة النفس بشدّة، يعي حركة رجله فلا تطأ نباتاً، وحركة يده فلا تقتلع شعرةً أو تقتل هامّةً، وحركة عينيه فلا تنظر في المرآة، وأنفه فلا يشمّ طيباً، وأُذنه فلا تسمع ما لا يرضي الله، ولسانه فلا ينطق في رفث أو جدال أو فسوق في الحجّ، وميوله الجنسيّة فلا تدفعه لارتكاب ما يستجيب لها، وهكذا تحمّل حرارة الشمس والامتناع عن التظليل وغير ذلك.

ومنها: تربية عنصر الإرادة

فهذا الصيد في متناول الأيدي والرماح، ولكنّه الأمر الإلهيّ بالامتناع. فالحرم حرم الله الآمن، إذ أنه المنطقة الآمنة الوحيدة في العالم من ممارسة الصيد، وما يحقّق الإمتاع الجنسي الحلال متوافر ولكنّه الأمر الإلهيّ بالامتناع.

والجميل في الأمر هنا: أنّ الامتناع يعني: الكبح المتواصل للنفس في كلّ آن، وعند ملاحظة اشتراطه بقصد القربة نكتشف مدى التأثير التربوي المتواصل الذي يتركه في

شعور المسلم الحاجّ، فهو في هذا شبيهٌ بما يتركه الصوم من أثر.

ومنها: التدرّب العملي على المنطق الحسن، واجتناب كلّ آفات اللسان وآثاره السيّئة.

ومنها: التدرّب على حياة الزهد والقناعة بكلّ شيء في سبيل الله تعالى.

**ثالثاً. الأقوال:**

ويكاد لا يخلو عمل في الحجّ من أقوال يردّدها الإنسان الحاجّ ـ وجوباً أو استحباباً ـ فتحقّق له ما يلقّنه معاني العمل أولاً، أو لتستغلّ الإقبال الروحي الذي وفّره العمل المرافق فتغرس في الشعور المعاني المطلوبة، فإنّها حينئذ أوقع وأشدّ تأثيراً.

وإلى جنب عمل الإحرام تأتي التلبية الواجبة، بكلّ ما تحمله من إيحاءات، إنّها: (رمز التوحيد)، وبها (لبّى المرسلون) كما جاء في بعض الروايات[٤٦].

وإنّها الانسجام مع المقولة الكونيّة: (ائتيا طَوعاً أو كَرهاً قالتا أتينا طائعين)[٤٧].

ولذا تقول بعض الروايات:

«أحرم موسى(ع) من رملة مصر. قال: ومرّ بصفاح الروحاء مُحرماً يقود ناقته بخطام من ليف، عليه عباءتان قطوانيّتان، يلبّي وتجيبه الجبال»[٤٨].

وروي عن الإمام الباقر(ع) أنّه قال:

«قال أمير المؤمنين(ع): ما من مهلٍّ يهلّ بالتلبية إلاّ أهلّ من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن على يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان: أبشر يا عبد الله، وما يبشّر الله عبداً إلاّ بالجنّة»[٤٩].

إنّ المسلم إذ يلبّي ليشعر:

١ ـ بأنّه: أهلٌ لكي يكون في عداد أولئك الذين أجابوا دعوة إبراهيم(ع) التاريخيّة، ممّا يدفعه كي ينظر إلى ارتباطه بالإسلام، كمهمّة كُبرى أُلقيت تاريخيّاً على عاتقه كفرد من هذه الأمّة التي حملت الأمانة. وأنّ عليه وعليها حمل هذه الأمانة بكلّ جدارة، فيطهّر الأرض من أدناس النُظم الوضعيّة الكافرة.



٢ ـ بأنّه: يرتبط بحركة التوحيد الخالص الذي ينزّه الله تعالى عن كلّ سخافات أهل الكتاب، وكلّ مفتريات المشركين، بكلّ ما يعنيه هذا الارتباط من تحكيم للتوحيد في كلّ شؤون الحياة، ونفي الآلهة الوهميّة المصطنعة، والطواغيت الذين تحكّموا بالشعوب ورقابها ودمائها دونما إذن من الله تعالى بل طغياناً وكفراً.

٣ ـ بأنّ عليه أنْ يستجيب لكلّ نداء إصلاحي حقيقي ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٥٠]، مهما كان ذلك القول بعيداً عنه ـ زماناً أو مكاناً ـ وحينئذ فيلبّي قبل كلّ شيء نداء الإسلام للعمل الصالح، ثمّ يتّبع سبيل المؤمنين والقادة الصالحين، رافضاً لسبيل الطواغيت الكفرة والعملاء الخونة للأمّة.

٤ ـ بأنّه ـ وهو يلبّي ـ: ينسجم مع الكون كلّه، الذي يقوم على العدل والحقّ والقسط والميزان، ملبّياً نداء الله.

٥ ـ بأنّه: يدخل بذلك عضواً في العائلة الإبراهيميّة التوحيديّة المسلمة، وجندياً في جيش الإسلام الطائف حول محور التوحيد والمحارب للشياطين الكبار والصغار، إلى غير ذلك من المشاعر.

هذا وإلى جانب عمل الطواف ودخول المسجد الحرام تأتي النصوص باستحباب أدعية وأنماط من السلام بخصوصها، تترك أثرها في شعور المسلم الحاجّ:

منها: أنْ يقول عند الانتهاء إلى باب المسجد:

«السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته، بسم الله، وبالله، ومن الله، وما شاء الله، والسلام على أنبياء الله ورسله، والسلام على رسول الله(ص)، والسلام على إبراهيم، والحمد لله رب العالمين ...»[٥١].

ألا تلاحظ معي عزيزي القارئ ما تحمله هذه الكلمات من معان تتضمّن الانسجام بعينه مع الأعمال، وهي الإيحاء بحكمة العمل؟! إنّها تحمل معنى الحياة على اسم الله بكلّ شؤونها وبإرادة الله، ومعنى التسليم لقادة الهدى في التاريخ، وفي طليعتهم الرسول الأكرم(ص) خير البشريّة جمعاء، وإبراهيم (ع) شيخ الموحّدين وأوّل المسلمين.

وهكذا ذكرت النصوص: أنّ الحاجّ ينبغي أنْ يقول عند دخول المسجد، رافعاً يديه، مستقبلاً بيت الله الحرام:

«اللّهُمّ إنّي أسألك في مقامي هذا في أوّل مناسكي أنْ تقبل توبتي، وأنْ تجاوز عن خطيئتي، وتضع عنّي وزري. الحمد لله الذي بلّغني بيته الحرام. اللّهُمّ إنّي أشهد أنّ هذا بيتك الحرام الذي جعلته مثابةً للناس وأمناً مباركاً وهدى للعالمين. اللّهُمّ إنّي عبدك، والبلد بلدك، والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، وأؤم طاعتك، مطيعاً لأمرك، راضياً بقدرك، أسألك مسألة المضطرّ إليك، الخائف لعقوبتك. اللّهُمّ افتح لي أبواب رحمتك، واستعملني بطاعتك ومرضاتك»[٥٢].

والآن ألا تبدو في هذا النصّ كلّ معاني الأفعال وموحياتها: معنى التوبة، والعودة إلى الله، وتزكية النفس، والشكر لله، ومعنى التذكير: بأنّ البيت مثابة للناس (وفي هذه الكلمة: «مثابة» معان كثيرة لا يبعد أنْ تكون مُرادة جميعاً)، وأمن وبركة، وهدى للعالمين لكلّ الأرض، وكذا معاني الانشداد العبودي العاطفي بالله تعالى، وتلقين النفس بالطاعة عبر تقديم يد الولاء في هذا المشهد، وعبر التذكير بضعف الإنسان وخوفه من العقوبة وأمله بالرحمة، وأخيراً هذا الطلب الرائع: «واستعملني بطاعتك ومرضاتك»: ربّ فاجعلني وسيلةً لتحقيق رضاك في الأرض.

وروي عن الإمام الباقر(ع) قال:

«إذا دخلت المسجد الحرام وحاذيت الحجر الأسود فقل: أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله. آمنت بالله، وكفرت بالطاغوت وباللاّت والعزّى، وبعبادة الشيطان، وبعبادة كلّ ندٍّ يُدعى من دون الله. ثمّ ادن من الحجر واستلمه بيمينك ثمّ تقول: بسم الله وبالله والله أكبر. اللّهُمّ أمانتي أدّيتها، وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة»[٥٣].

وتكاد المعاني التي ذُكرت في إيحاءات عمل الطواف تتجلّى في نصّ الدعاء هذا. إنّها الشهادة بالوحدانية لله، والعبودية، والرسالة لمحمد(ص)، وتأكيد الإيمان بالمطلق، والكفر



بالطواغيت واللاّت والعزّى، وعبادة الشيطان، وكلّ من هُم على شاكلة الشيطان من الأرباب الوهميّة التي تُدعى من دون الله.

ثمّ هذا الدنوّ من الحجر الأسود لتقبيله يقترن بتذكير رائع. فالحجر الأسود نموذج حسّي من عالم الغيب، مقدّس رعاه الأنبياء(ع) جميعاً، تنفتح منه أبواب غيبيّة واسعة.

هذا الحجر أمدّ له يدي لاؤدّي ميثاق الله وأمانة الله التي أودعها في فطرتي، ولأُعاهد الغيب من جديد على أنْ أتعاهد ميثاقي في كلّ مسيرتي الحياتيّة، وأتذكّر مقتضيات هذا العهد في كلّ زمان ومكان وحالة. كلّ ذلك في إطار البسملة، بما تحمله من معان جمّة، وذكر الله وتكبيره جلّ وعلا.

إنّها ثورة المشاعر وطمأنينتها بالله في آن واحد، وإنّه الإسلام يغرس في القلوب أصفى المعاني بعد أنْ يُهيّئ الأرضيّة المناسبة للتأثير.

وبعد ركعتي الطواف تأتي بعض الأدعية الموجّهة. ففي خبر قويّ الإسناد عن الصادق(ع) قال:

«تدعو بهذا الدعاء في دبر ركعتي طواف الفريضة، تقول بعد التشهّد: اللّهُمّ ارحمني بطواعيتي إيّاك، وطواعيّتي رسولك(ص). اللّهُمّ جنّبني أنْ أتعدّى حدودك، واجعلني ممّن يحبّك، ويحبّ رسولك، وملائكتك وعبادك الصالحين»[٥٤].

وروى عبد الله بن جعفر في (قرب الإسناد) بسنده عن أحمد بن إسحاق، عن بكر بن محمد، قال:

خرجت أطوف وأنا إلى جنب أبي عبد الله(ع) حتّى فرغ من طوافه، ثمّ مال فصلّى ركعتين مع ركن البيت والحجر، فسمعته يقول ساجداً: «سجد وجهي لك تعبُّداً ورقّاً، ولا إله إلاّ أنت حقّاً حقّاً، الأوّل قبل كلّ شيء، والآخر بعد كلّ شيء، وها أنا ذا بين يديك، ناصيتي بيدك، فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنب العظيم غيرك، فاغفر لي فإنّي مقرٌّ بذنوبي على نفسي، ولا يدفع الذنب العظيم غيرك»، ثمّ رفع رأسه ووجهه من البكاء كأنّما غُمس في الماء[٥٥].

وهذه المعاني يقصُر عن شرحها اللسان: لما فيها من جوائب العطاء والعظمة.

ويقترن عمل السعي ببعض الأقوال أيضاً، وقد روى بعض الاصحاب قال:

كنت وراء أبي الحسن موسى(ع) على الصفا ـ أو على المروة ـ وهو لا يزيد على حرفين: «اللّهُمّ إنّي أسألك حسن الظنّ بك على كلّ حال، وصدق النيّة في التوكّل عليك»[٥٦].

وفي هاتين الكلمتين ما فيهما من معاني السعي في منهج الله، والتوكّل عليه وحسن النيّة، والأمل بعطائه، والأمل هو دافع السعي.

أمّا الوقوف بعرفة فهو ربيع الدعاء، ويكاد الإنسان لا يدري عن أيّ قول فيه يتحدّث، وإلى أيّ معنىً فيه يشير؟

وقد جاءت عن الأئمّة من أهل البيت(ع) الكثير من الأدعية في هذا الموقف.

ففي الرواية عن الإمام الصادق(ع) قال:

«وإنما تعجّل الصلاة وتجمع بينهما لتفرّغ نفسك للدّعاء، فإنه يوم دعاء ومسألة، ثمّ تأتي الموقف وعليك السكينة والوقار، فاحمد الله وهلّله، ومجّده وأثن عليه وكبّره مائة مرّة، واحمده مائة مرّة، وسبّحه مائة مرّة، واقرأ: قل هو الله أحد مائة مرّة، وتخيّر لنفسك من الدعاء ما أحببت، واجتهد فإنه يوم دعاء ومسألة، وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنّ الشيطان لنْ يُذهلك في مواطن قطّ أحبّ إليه من أنْ يذهلك في ذلك الموطن، وإيّاك أنْ تشتغل بالنظر إلى الناس، وأقبل قبل نفسك.

وليكن فيما تقوله: اللّهُمّ إنّي عبدك فلا تجعلني من أخيب وفدك، وارحم مسيري إليك من الفجّ العميق.

وليكن فيما تقول: اللّهُمّ ربّ المشاعر كلّها فكّ رقبتي من النار، وأوسع عليّ من رزقك الحلال، وادرأ عنّي شرّ فسقة الجنّ والإنس.

وتقول: اللّهُمّ لا تمكر بي، ولا تخدعني، ولا تستدرجني.

وتقول: اللّهُمّ إنّي أسألك بحولك وجودك وكرمك، ومنّك وفضلك، يا أسمع السامعين، ويا أبصر الناظرين، ويا أسرع الحاسبين، ويا أرحم الراحمين، أنْ تصلّي على محمد وآل محمد وأنْ تفعل بي (كذا وكذا).



وليكن فيما تقول وأنت رافعٌ رأسك إلى السماء:

اللّهُمّ حاجتي إليك التي إنْ أعطيتنيها لم يضرّني ما منعتني، والتي إنْ منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك خلاص رقبتي من النار.

وليكن فيما تقول: اللّهُمّ إنّي عبدك وملك يدك، ناصيتي بيدك، وأجلي بعلمك، أسألك أنْ توفّقني لما يرضيك عنّي، وأنْ تسلّم منّي مناسكي التي أريتها خليلك إبراهيم صلوات الله عليه، ودللت عليها نبيّك محمداً(ص).

وليكن فيما تقول:

اللّهُمّ اجعلني ممّن رضيت عمله، وأطلت عمره، وأحييته بعد الموت حياةً طيّبة»[٥٧].

وروي عن الإمام الحسين(ع) دعاؤه المعروف في يوم عرفة، وهو من أغنى الأدعية وأشدّها تأثيراً في النفس، وهو دعاء طويل نقتبس منه هذه العبارة:

«اللّهُمّ اجعلني أخشاك كأنّي أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تُشقني بمعصيتك، وخِرْ لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتّى لا أُحبّ تعجيل ما أخّرت ولا تأخير ما عجّلت. اللّهُمّ اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني، ومتّعني بجوارحي، واجعل سمعي وبصري الوارثين منّي، وانصرني على من ظلمني...»[٥٨].

ولا أجدني هنا بحاجة لشرح معاني هذا المقطع الجليل، بل لا أستطيع ذلك في هذا المختصر.

أمّا الرمي فيقترن بالتكبير وهو يحمل المعنى الأساس للإسلام، أو فلنقل: يكمل الصورة التي يؤدّيها العمل. فالعمل يجسّد مضمون: (لا إله)، والقول يؤكّد منطوق: (إلاّ الله)، فما أجمل هذا الانسجام.

وهكذا نجد إلى جنب كلّ عمل قولاً يشترك معه في إعطاء الصورة الكاملة للمشاعر، وإغناء الشعور بما يحقّق الهدف.

**رابعاً. الشروط الشرعية:**

وأكبر شرط أهمّيةً في عمليّة الحجّ هو وجود قصد القربة في كلّ عمل يقوم به الحاجّ.

وماذا يعني هذا الشرط؟

إنّ التقرّب هنا بلا ريب ليس مكانيّاً، فالله منزّه عن المكان، بل هو قرب معنوي. وهذا القرب المعنوي لا يمكن أنْ يصدُق إن لم نتصوّر للإنسان مسيرة فطريّة طبيعيّة يتمّ على أساسها تقدير مدى التكامل، وذلك بمقدار طيّه هذه المسيرة، أو مدى التراجع على أساس خسرانه الدرجات وانحطاطه طبق قياس الفطرة. وإذا أمكن للإنسان أنْ يصل إلى قاب قوسين أو أدنى فإنّ هناك أُناساً انحطّت بهم نفسيّتهم فعادوا كالأنعام بل هم أضلّ.

فالمسيرة فطريّة، والهدف هو الله الكامل المطلق، وهذا يعني: أنّ المسيرة لن تقف عند حدّ، ولن يصل يومٌ يُقال فيه: إنّه الكمال فلا كمال بعده.

وهذا ما ابتُليت به الماركسيّة، إذ وضعت حدّاً أعلى للسموّ الاجتماعيّ، ثمّ صَحّت على قوانين الديالكتيك، وهي تنطفئ في هذا الحدّ الأعلى، فلا يبقى مسوّغ أو أرضيّة أو عامل للتطوّر، وهكذا يقضي الديالكتيك على نفسه في هذا المنطق البشري القاصر.

وعلى أيّ حال، فإنّ مسيرة التقرّب إلى الله مستمرة دائماً، تستوعب أنْ يصوغ الإنسان حياته كلّها وسيلةً للتقرّب.

وقد رُوي أنّ النبيّ(ص) قال لأبي ذرّ:

«إن استطعت أنْ لا تأكل ولا تشرب إلاّ لله فافعل»[٥٩].

وفي رواية أُخرى:

«يا أبا ذرّ، ليكن لك في كلّ شيء نيّة، حتّى في النوم والأكل»[٦٠].

ويقوم نظام العبادات بتربية هذه الخاصيّة في الشخصيّة المسلمة. ولا ريب في أنّ جوّ القربة إلى الله يهيّئ لانغراس المفاهيم الصحيحة، وتأثير التربية في النفس الإنسانيّة.

كما أنّ من الشروط في بعض المناسك: الطهارة من الحدث والخبث، ممّا يترك أثره



في تهيئة الأجواء المساعدة لنجاح عمليّة التربية.

ومنها: اشتراط عدم الغصب في كلّ ما يُلبس، وهو أيضاً يستلزم أموراً لها دخلها في تنظيم الوضع الاقتصادي السليم.

**خامساً. الأزمنة والأمكنة والذكريات الموحية:**

وسفر الحجّ حافلٌ بالذكريات الموحية التي يوحي بها الزمان والمكان، فيدع الإنسان الحاجّ يعيش في عالم قدسيّ، ويحلّق بروحه إلى آفاق أرحب في التاريخ.

أمّا زمان الحجّ، فهو في العشرة الأُولى تقريباً من ذي الحجّة وإن كان يكمل بطليعة العشرة الثانية.

ولكن هل يرمز هذا إلى شيء؟

لقد أشارت إلى هذه العشر سورة الفجر، فقال تعالى: ﴿والفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ والشَّفْعِ والوَتْرِ﴾[٦١]، حيث فُسّرت «الليالي»: بالليالي العشر الأُولى من ذي الحجّة، كما فُسّرت بغيرها أيضاً، وفُسّر «الفجر»: بفجر يوم النحر[٦٢].

وقد عبّرت آية أُخرى عن أيّام الحجّ بكونها: (أيّام مَعْلُومات)[٦٣].

وقد رُوي عنه(ص) أنّه قال:

«إنّ الله لا يحبّ العبادة مثلما يحبّها في العشر الأُولى من ذي الحجّة»[٦٤].

ومن الأعمال المستحبّة في هذه الليالي: أنْ يصلّي الإنسان ركعتين، يقرأ في كلّ ركعة بعد: (سورة الحمد) و (قل هو الله أحد)، الآية: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٦٥][٦٦].

ولعلّ الليالي العشر التي امتُحن بها بنو إسرائيل قبل أنْ يأتيهم موسى(ع) بالألواح هي هذه الليالي. وعلى أيّ حال، فهي ليال شريفة مباركة كلّها تربية وامتحان، وربّما ذكّرت بذلك الامتحان التاريخيّ لقوم موسى(ع)، وقد أقسم بهذه الليالي القرآن ـ على تفسير[٦٧] ـ نظراً لعظمتها وأهمّيتها.

ثمّ نفس اقتران هذا الزمان دائماً بعمليّة الحجّ، ووقوع اليوم المبارك (يوم عرفة) فيه، ووجود الكثير من المستحبّات في هذا الزمان، كلّ ذلك يعطي هذه الفترة قداسة وقدرة على فتح آفاق النفس، وبوفّر الأرضيّة الصالحة للتربية الإنسانيّة.

أمّا من حيث الأمكنة فحدّث ولا حرج، فكلّ حجارة في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة ـ بالتبع ـ تنبئك عن تاريخ وذكريات جمّة تشدّ الإنسان بأروع ذكريات ثلاث:

الأُولى: ذكرى العائلة الإبراهيميّة المضحّية المسلمة:

فهنا مقام إبراهيم(ع)، وهنا حجر إسماعيل(ع)، وهناك مسعى أُمّ إسماعيل(عليها السلام)، وها هنا محلّ رمي الشيطان، وهناك محلّ الفداء، وهنا زمزم بئر البركة الإبراهيميّة.

وعندما يطالع الحاجّ هذه الصحف التاريخيّة يقرأ كلّ معاني الفداء والإخلاص والإسلام والتضحية، وترتسم في خُلده صورة:

* الشيخ العجوز الذي رُزق ولداً بعد يأس وهو يترك الولد وأُمّه في صحراء غير ذات زرع عند بيت الله المحرّم امتثالاً لأمر الله.

* والأُم الوالهة المستسلمة للأمر وهي تبحث عما يروي ظمأ الرضيع بين جبلين فلا تجد شيئاً وتتفجّر زمزم تحت قدمي الطفل.

* والولد الشابّ القويّ الذي يخبره والده: بأنّ الله يأمره أنْ يستسلم لسكّين الذبح بيد والده، فيقول بكلّ ثبات:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٦٨].

كلّ هذه الذكريات تتجلّى للحاجّ فتملأ مشاعره بمعان لا تُنسى، تترك آثارها ـ إن كان واعياً ـ على كلّ حياته.

الثانية: ذكرى تاريخ البيت العتيق:

على يد آدم(ع) أبي البشريّة يُبنى البيت العتيق ليتعبّد فيه ... ويظلّ محور التاريخ المشرق، ويُجدّد بناؤه على يد إبراهيم واسماعيل(ع)، ويأتي التجديد الثالث في عصر



الرسول الأعظم(ص) ليضع الرسول الأمين(ص)الحجر الأسود بيده في مكانه المعين.

إنّ البيت ـ والحال هذه ـ يشكّل محور التوحيد في الأرض والتاريخ، كما يشكّل حلقة الوصل بين الفترات النبويّة في التاريخ، وهو بالتالي يحكي جهاد عباد الله الصالحين وطوافهم به.

وما أجمل تعبير الإمام أمير المؤمنين(ع)، وهو يعمل على تربية مشاعر الطائفين بالبيت، إذْ يقول:

«واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه ...»[٦٩].

فهم يشعرون حسّاً بأنّهم: يضعون أقدامهم حيث وضع الأنبياء(ع) أقدامهم وفي ذلك شعورٌ بالارتباط بالمسيرة المؤمنة عبر التاريخ، وشعورٌ بحمل الأمانة التي حملها الأنبياء(ع)نفسها، وشعورٌ بالامتداد التاريخيّ العريق لهذا الوجود الإنساني في الحاضر.

الذكرى الثالثة: ذكرى انطلاقة الإسلام من هذه الأرض الطاهرة المقدّسة.

فكلّ نقطة من مكّة إلى المدينة تحكي حادثةً وتفصح عن: انطلاقة الجماعة المسلمة، وثورتها بوجه الكفر والشرك والطاغوت، وثباتها وعذابها وهجرتها، وعن نزول القرآن الكريم في هذه الديار، وعن التطبيق الإسلامي له، وعن جهاد المسلمين المتواصل بعد الهجرة. عشرات الحروب والغزوات خاضها المسلمون في عشر سنين كلّها عذابٌ مقدّس وألمٌ جميل في سبيل العقيدة العظمى.

والواقع أنّ الأماكن الموحية كثيرة كثيرة، وكما قلنا: فإنّ كلّ قطعة تحمل ذكريات وذكريات لها أثرها في رفد شعور المسلم بما يترك أعظم الأثر في تصوُّراته وعواطفه.

### سادساً. العيد:

والعيد الإسلامي لا يأتي إلاّ بعد عمليّة عباديّة تربويّة كبرى للإنسانيّة. فعيد الفطر يأتي بعد عمليّة الصوم المربّية للإنسانيّة، وعيد الأضحى يأتي بعد عمليّة الحجّ المربّية لها.

والعيد يحمل معاني كبيرة في المفهوم الإسلامي، إنّه:

يوم الفرحة بالانتصار على نوازع النفس والشيطان، ويوم العودة إلى الفطرة الأصيلة، ويوم انتصار التضحية والدم على الطاغوت والشيطان، ويوم تسلُّم جوائز الله بعد قضاء شهر في ضيافته أو أيّام في حرَمه.

وهو يوم التوبة، والتطهير، والزكاة: زكاة التطهير، وزكاة التنمية. وهو عيد الإحساس بآلام الفقراء وأطفالهم ومواساتهم، ومشاركتهم آلامهم.

**الهوامش:**

١- عيون أخبار الرضا(ع) ٢: ١١٨/ ١، وعنه في البحار ٩٦: ٤٢/ ٢٤.

٢- القصص: ٢٧.

٣- آل عمران: ٩٦.

٤- البقرة: ١٢٧.

٥- البقرة: ١٢٥.

٦- تفسير العيّاشي ١: ٧٩/ ٩٩، وعنه في البحار ٩٦: ٤١/٦٤.

٧- بحار الأنوار ٩٦: ٦٥/ ٤٧، نقلاً عن خط الشهيد الثاني الذي نقله عن الراوندي.

٨- نهج البلاغة: ٢٩٢/ الخطبة:١٩٢.

٩- أمالي الصدوق: ٤٩٤/ ٤، وعنه في البحار ٩٦: ٢٩/ ١.

١٠- المحاسن: ٣٣٦/ ١١٠.

١١- المصدر المتقدّم: ٣٣٥ ـ ٣٣٦/ ١٠٩.

١٢- نهج البلاغة: ٤٥/ الخطبة: ١.

١٣- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٢/ ٦٦٣.

١٤- سنن البيهقي ٥: ٤٢.

١٥- صحيح البخاري٢: ٥٦٣/ ١٤٨٠.

١٦- البقرة: ١٢٤ ـ ١٢٥.

١٧- آل عمران: ٩٥ـ ٩٧.

١٨- الحج: ٢٦ ـ ٢٧.

١٩- الحج: ٧٨.



٢٠- علل الشرائع: ٤٠٦/ ٦، وعنه في البحار ٩٦: ٣٣/ ٩.

٢١- الذاريات: ٥٦.

٢٢- المؤمنون: ٣٢.

٢٣- فصّلت: ١٤.

٢٤- جمع الفوائد ١: ٢٤٩.

٢٥- النحل: ٣٦.

٢٦- الأنعام: ٧٩.

٢٧- الأنعام: ١٦٢.

٢٨- البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨.

٢٩- البقرة: ١٣١.

٣٠- الصافّات: ٩١ ـ ٩٢.

٣١- الشعراء: ٧٥ ـ ٨١.

٣٢- الممتحنة: ٤.

٣٣- النساء: ١٢٤ ـ ١٢٥.

٣٤- الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨.

٣٥- قال أمير المؤمنين(ع): «وفرض عليكم حجّ بيته الحرام الذي جعله قبلةً للأنام - إلى أنْ قال: - واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه...» الخطبة. راجع: نهج البلاغة: ٤٥/الخطبة: ١.

٣٦- البقرة: ٣.

٣٧- البلد: ٤.

٣٨- الحج: ٧٨.

٣٩- البقرة :٢٥٨.

٤٠- الكافي ٤: ٤٣٤/ ٣، وعنه في الوسائل ١٣:٤٦٧/ ١٨٢٢٣.

٤١- الحشر: ١٩.

٤٢- البلد: ١٤.

٤٣- الضرورة: تعني الحجّ لأوّل مرّة.

٤٤- سورة الفتح: ٢٧.

٤٥- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٤/ ٦٦٨، وعنه في الوسائل ١٤: ٢٢٥/ ١٩٠٥٠.

٤٦- روي عن أبي عبد الله(ع) أنه قال: «التلبية أنْ تقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبّيك ... - إلى أنْ قال - واعلم أنه لابدّ لك من التلبيات الأربعة التي كُنّ في أوّل الكلام، وهي الفريضة وهي التوحيد، وبها لبّى المرسلون ...» الحديث. راجع: التهذيب ٥: ٩١ ـ ٩٢/ ٣٠٠.

٤٧- فصّلت: ١١.

٤٨- الكافي ٤: ٢١٣/ ٥.

٤٩- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٣٢/ ٥٥٣. وعنه في الوسائل ١٢: ٣٧٨ ـ ٣٧٩/ ١٦٥٥٩.

٥٠- الزُمر: ١٨.

٥١- الكافي ٤: ٤٠١/ ١، وعنه في الوسائل ١٣: ٢٠٤/ ١٧٥٧٢.

٥٢- الكافي ٤: ٤٠٢/ ٢.

٥٣- المصدر نفسه ٤: ٤٠٣ ـ ٤٠٤/ ٣. وعنه في الوسائل ١٣: ٣١٥/ ١٧٨٢٩.

٥٤- التهذيب ٥: ١٤٣/ ٤٧٥، وعنه في الوسائل ١٣: ٤٣٩/ ١٨١٦٢.

٥٥- قرب الإسناد: ٣٩ ـ ٤٠/ ١٢٧، وعنه في الوسائل ١٣: ٤٣٩ ـ ٤٤٠/ ١٨١٦٣.

٥٦- الكافي ٤: ٤٣٣/ ٩، وعنه في الوسائل ١٣: ٤٨١/ ١٨٢٥٤.

٥٧- التهذيب ٥: ١٨٣ ـ ٦١١/١٨٤، وعنه في الوسائل ١٣: ٥٣٨ ـ ٥٣٩/ ١٨٣٩٤.

٥٨- الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ٧٨.

٥٩- لم نعثر عليه في المصادر الموجودة بين أيدينا.

٦٠- بحار الأنوار ٧٤: ٣/٨٢، نقلاً عن مكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٦٤.

٦١- الفجر: ١ ـ ٣.

٦٢- مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٧٣٦.

٦٣- الحجّ: ٢٨.

٦٤- روى ابن طاوس في ( الإقبال ) قال : روى أبو علي الحسن بن محمد بن إسماعيل في كتاب اعمل ذي الحجّة) بإسناده إلى رسول الله(ص) قال: «ما من أيّام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من أيّام العشر - يعني: عشر ذي الحجّة...» الحديث. راجع: الإقبال ٢ : ٣٤ ـ ٣٥.

٦٥- الأعراف: ١٤٢ .

٦٦- الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ٣٥.

٦٧- مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٧٣٦، عند تفسير قوله تعالى: (والفجر وليال عشر).

٦٨- الصافّات: ١٠٢ .

٦٩- نهج البلاغة: ٤٥/الخطبة :١.